معة جنوب الوادى
لية التربية بسوهاج
المجلة التربوية

هل لتعليمنا العربى فلسفة

الأستاذ الدكتور
مصطفى رجب
أستاذ أصول التربية
وعميد كلية التربية بسوهاج السابق

المجلة التربوية ــ العدد السابع عشر يناير ٢٠٠٢م

هل لتعليمنا العربي فلسفة ؟

د. مصطفى رجب

يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة " إن الأمم المغلوبة مولعة بتقليد الأمم الغالبة " وهذه المقولة لم تتحقق في عصر من العصور مع الأمة العربية ؛ بقدر ما يتحقق الآن . فالأمة العربي ، في الوقت الراهن ، في وضع لا تُحسد عليه مهانة وضعفاً وانهزاماً نفسياً داخلياً . وتراجعاً حضارياً .

ويكفي أن يتابع المرء نشرة الأخبار أسبوعاً ليرى ما يفعله جنود الصهابنة في فلسطين من فتك وهتك وعربدة ويوازن بين هذه الأفاعيل الشيطانية ، وبين ما تبثه وسائل الإعلام العربية من ردود أفعال الأمة العربية فلا يجدها تخرج عن الاستنكار والشجب والإدانة واستصراخ الرأي العام العالمي لنجدة الأبرياء العزّل في فلسطين وهم يواجهون أحدث أسلحة التدمير المحرمة دولياً . وكأن العرب بذلك ليسوا جزءاً من الرأي العام العالمي ، فتصريحاتهم محايدة كما لو كانوا يعيشون في أقصى بقاع الأرض وليسوا في قلب القلب من الأحداث .

فما الذي أدى إلى هذا الوضع المتردي؟ وما الذي أوصل الأمة العربية إلى هذا الدرك من الانحطاط السلوكي والانهيار النفسي ؟

كثير من الكتّاب يستسهلون حين يبحثون عن إجابة لتلك التساؤلات ، فيتهمون الأنظمة العربية بالجمود والخمود وإيثار السلامة والرغبة في التفرغ لقضاياها الخاصة المتمثلة في جمع الثروة وكبت المعارضة أو لنقل : جمع الثروة وقمع الثورة .

غير أنني لا أرى ذلك وحده كافياً أو لا أراه ، الإجابة الوحيدة الصحيحة التي لا نتعداها حين نحاول تفسير هذه اللامبالاة التي تجتاح الأمة من المحيط إلى الخليج ، بل إن هناك سبباً آخر يعلو ذلك في الأهمية وهو " نظام التعلم " في الدول العربية . أو لنقل " نظم " التعليم فما زال العرب مختلفين حول تعليم أبنائهم ، لم يستطيعوا على مدى أكثر من نصف قرن من خلال الجامعة العربية ومؤسساتها الثقافية المتعددة ، أن يوحدوا لا أنفسهم ولا مناهجهم ولا نظم تعلم أبنائهم .

لأن الوحدة السياسية عسيرة المنال بحكم الشك القاتل المترسب في النفسية العربية ، والخوف من أن يطغى بعضهم على بعض أو يفتك بعضهم ببعض إذا ما جمعتهم دولة واحدة ذات أهداف واحدة . فهم يسارعون إلى الاحتماء بالغريب والارتماء في أحضانه ليحمي بعضهم من بأس بعض.

ومادام هذا الشك مسيطراً ، ومادام ذلك الخوف قائماً ، فلا أمل في وحدة سياسية ، ولكن الغريب العجيب أنهم - الآن - بدءوا يبحثون عن وحدة اقتصادية أو ما يسمونه (السوق العربية المشتركة) ناسين أو متناسين أن الدول الكبرى التي تحمي بعضهم سياسياً وعسكرياً لها مصالح اقتصادية في تلك الدول المرتمية في أحضانها ، وفي مقدمة تلك المصالح أن تظل دائرة في فلكها اقتصادياً كما تدور سياسياً وعسكرياً . ومن ثم فلا يمكن لتلك الدول الكبرى أن تسمح بوحدة اقتصادية عربية ، بل إنها - وهي الواعية بطبيعة هذا العصر - تدرك ما أصبح للاقتصاد من أهمية في توجيه السياسة وغيرها .

وتأسيساً على ما سبق فإن المخرج الوحيد أمام العرب ما أرادوا أن يخرجوا من أزمتهم الحالية [إذا كانوا يدركون أنهم في أزمة] هو الاتجاه إلى التعليم بوصفه السلاح الوحيد المتاح في أيديهم للصمود والمقاومة ، ولا شك في أن اللجوء إلى التعليم للتغيير يتطلب سنوات طوالا، ولا يُرجى أن يؤتي ثماره خلال أعوام قليلة . ودروس التاريخ القديم والحديث تشهد بذلك . ففي التاريخ القديم علمنا من القرآن الكريم كيف رفض اليهود الخروج من مصر مع موسى عليه السلام ليقاتلوا القوم الجبارين الذين احتلوا أرضهم. وطلبوا من موسى أن يذهب فيقاتل هو وربه فقضى الله تعالى عليهم بالتيه أربعين سنة في صحراء سيناء حتى ينتهي هذا الجيل الخامل الخامد الضعيف المهزوم نفسياً ويولد جيل جديد يحن إلى أرضه ،ويبذل كل ما يملك من أجل تحريرها . وحين يبلغ من يُولد في أول التيه أربعين سنة من عمره يكون جيل الخائرين قد ولى أو كاد ويكون الباقون منه واقفين على محطات انتظار الموت لا محالة .

وفي التاريخ الحديث نرى كيف أن الفلسطينيين الكبار الذي كانوا يوماً ما قادة ومبشرين بالتحرير يجلسون الآن على موائد التفاوض . في حين نرى الصغار الذين ولدوا تحت الاحتلال وذاقوا مرارة القهر والذل والهوان وحرب الأرزاق وتدمير المنازل . ولم يهربوا من ديارهم يحملون أحجارهم وأرواحهم وأمانيهم ويواجهون بأجسادهم البضة نيران المدافع وجنازير الجرافات ولهيب الدبابات وقصف الطائرات .

التعليم والدفاع عن الهوية :

حين تراجع النفوذ الفرنسي أمام النفوذ الإنجليزى في نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين ، اضطرت فرنسا إلى الرضوخ لمطالب بريطانيا عام ١٨٩٩م فيما عرفت باسم اتفاقية تقسيم المستعمرات . حينذاك عقد البرلمان الفرنسي عدة جلسات شهيرة لا ليحاكم وزير الدفاع وقادة الجيش المهزومين . بل ليحاكم وزير التربية والتعليم بحجة مقنعة وهي أن نظام التعليم لو كان قد استطاع تخريج شباب مؤمن بفرنسا وقضاياها ، لما سلّم أسلحته ولا انسحب

من أية معركة ، ولاستبسل جنود الجيش دفاعاً عن أمتهم التي أحبوها وآمنوا بها وتغذوا على الدفاع عنها .

وقد سجل الفيلسوف الفرنسي الشهير " جوستاف لوبون "خلاصة مناقشات البرلمان في كتاب له عنوان (روح التربية) أو (روح الاجتماع) وقد ترجم ذلك الكتاب ثلاث مرات إلى اللغة العربية : ترجمه فتحي زغلول شيق سعد باشا زغلول ، وترجمه د. طه حسين وترجمه عادل زعيتر . ولكن ما الفائدة من ترجمته والعرب غارقون فيما سواه من اهتمامات ؟.

إن ما يقوله ذلك الكتاب خطير حقاً وفحواه : أن الأمة إذا أرادت أن يكون لها مكان بين الأمم القوية فعليها أن تتخذ لنفسها نظام تعليمي قوياً مؤثراً مستقلاً واضح الأهداف . وهذا هو مربط الفرس كما يقول العرب .

نحو فلسفة للتعليم العربي :

حين انطلقت مقولة عن " العرب ظاهرة كلامية " لم يكن المقصود منها تحقير الأمة العربية أو الإزراء بها ، فهذا ما لا يجول - ولا يجوز أن يجول - بخاطر أي كاتب أو مفكر عربي بداهة لمجرد كونه عربياً ناتجاً من تلك الأمة . بل كان المقصود بها - في تقديري الخاص - وصف واقع تعيشه الأمة العربية وعاشته بالفعل كثيراً على مدى تاريخها الطويل .

فأقوال العرب أكثر من أفعالهم . وصراخهم أعلى من أصواتهم ، وأصواتهم في المؤتمرات والمحافل أعلى من أصوات جميع أمم الأرض لسبب نفسي كامن في شخصياتهم وهو أنهم يعلمون أنهم يقولون لأنه ما لا يفعلون. فيحبون أن يؤثروا في الآخرين بما يقولون لأنه كل ما يملكون . لذلك ترتفع أصواتهم وتختلج نبراتهم ، وتكثر تشبيهاتهم وكناياتهم . ثم يخلدون إلى الراحة من جراء هذا الصياح المؤلم . فتطول راحتهم سنين .

والتعليم في بلادنا العربية يعكس أبعاد هذه الشخصية القومية العربية بوضوح . فالمدارس تنتشر والجامعات تتسع ومراكز البحوث تقام هنا وهناك . والمؤتمرات تنعقد لتنفض وتنفض لتنعقد ، واللجان (على قفا من يشيل) تجتمع وتنبثق منها لجان ، وتنسق بين أعمال اللجان لجان أخرى . وتشكل الهيئات والمنظمات والاتحادات والنقابات والمؤسسات والجمعيات . ويلد كل تنظيم من تلك التنظيمات مالا يقل عن عشرة مؤتمرات وعشر ندوات ف كل عام لمناقشة قضايا سبق أن ناقشها تنظيم آخر !!!

كل ذلك في شؤون التعليم كما هو الحال في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع . . فلا يخلو قطر عربي من مراكز للبحوث التربوية والتنمية ن ولا تخلو جامعة عربية من مراكز للبحوث .وتطبع في كل عام عشرات الكتب ومئات المجلدات الشاملة لخلاصات ما تدوول في الندوات

والمؤتمرات . وتناقشت في الجامعات مئات الرسائل والبحوث العلمية لحل هذه المشكلة أو تلك من مشكلات التعليم .

ومع هذا كله ، فما تزال كتاباتنا التربوية تردد على أسماعنا أن مناهجها فاسدة ، وأن طرق تدريسنا بالية ، وأن وسائل تعليمنا متخلفة . وأن المعلم العربي لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ولا الفائق من المتأخر في أثناء تدريسه . وأن طرق الامتحانات عندنا ما تزال تقيس الحفظ ولا تقيس الفهم . وتنتج مدارسنا طلاباً مقولبين تمت صياغتهم وفق مناهج صماء لا تعترف بما أودعه الله بين خلقه من فروق فردية . ثم إن مناهجنا لا تواكب عصر الحاسوب ولا تنهل من مناهل الثورة المعرفية الراهنة . وما تزال تقف عند حدود ما أنتج داروين ومعاصروه !!!

الاتفاقيات العربية . . ساحت !:

والعجيب حقا في الشأن العربي أن العرب منذ أنشئت الجامعة العربية سنة خمس وأربعين وتسعمئة وألف ، وقّعوا على مئات - وربما آلاف - المعاهدات والاتفاقيات ومذكرات التفاهم المشترك ، ومواثيق التعاون ، وبروتوكولات الوحدة ، والاتحادات النوعية على المستوى العربي ، وما من شهر يمر إلا ويجتمع وزراء العرب المتماثلون فيعانق بعضهم بعضاً ، ويقبل بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ، وتنتهي الموالد دائماً بالتوقيع على اتفاقيات ومعاهدات تستهدف تحقيق حلم الوحدة العربية !!

وبرغم وجود هذه الوحدة العربية كحقيقة تاريخية ، بحكم الأنساب واللغة والتاريخ والدين ، فإن بين العرب تنافراً دائماً ، وبرغم وجود تلك الأطنان المكدسة من الوثائق والمعاهدات ، فما زال العرب يلهثون وراء الحلم المستحيل : "الوحدة التي لا يغلبها غلاب "، وعلى الجانب الآخر : بدأت إسرائيل رحلة وجودها بأقل من نصف مليون من يهود فلسطين الأصليين مع من استقروا معهم من يهود أوربا من الهجرات المبكرة إلى فلسطين ثم مازالت إسرائيل تستجلب اليهود من روسيا وإفريقيا وأوربا : من روسيا ليستوطنوا ويحاربوا ، ومن إفريقيا ليعملوا في الزراعة والصناعة ، ومن أوربا ليحكموا ويسوسوا ، ومع هذا التنافر الثقافي / الحضاري / العرقي ، فإن إسرائيل تزعم أنها دولة واحدة اعتماداً على عامل واحد من عوامل الوحدة وهو : الدين !! . برغم ما بين تعاليم الدين اليهودي من تناقضات ترويها الاختلافات الثقافية ، واليهود - بطبعهم - لا يعرفون الحب أو التآلف أو التوحد ويكفي أن نتذكر كيد أبناء يعقوب لأخويهم : يوسف وأخيه وتآمرهم عليهما وخداعهم لأبيهم يعقوب . فهذا هو طبعهم

ولذلك لم تعرف دولة إسرائيل _قط _ مواثيق للوحدة أو التعاون أو التعايش تماثل تلك المواثيق العربية (المتلتلة) . لأنهم يعرفون في أنفسهم - سلفاً - أنهم لا يلتزمون بشيء ولا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً ولا اتفاقاً ولا مذكرة تفاهم .

وآفة العرب أنهم حالمون ، يكذبون ويصدقون كذبهم ، ويسمعون الأكاذيب ويصدقونها ، ويتكلمون فيبالغون في كلامهم ولو أنك ترجمت أية عبارة من العبارات التي تجري يومياً على ألسنة العرب إلى لغة أخرى لما فهم أصحاب تلك اللغة سبباً لهذه المبالغة الممقوتة . فالمحب لا يكفي أن يقول لحبيبته (أنا أحبك) بل يقول لها (أنا أموت فيكِ) أما الأوربيون فهم يقولون بمنتهى الواقعية والتجرد (I love You) وكفي !! ، والعربي إذا أعجبته نكتة لم يقل إنها جيدة أو رائعة أو ممتعة وإنما يصفها بأنها (تموّت من الضحك) أو (تفطّس من الضحك) فالعرب - بلغتهم اليومية ومبالغاتهم الكلامية - إلى الموت أقرب منهم للحياة !!!.

وحتى حين يبدأ المعلم العربي في تعليم اللغة لأبناء العروبة يتخذ من الفعل (ضرب) منطلقاً لأمثلته (ضرب زيد عمراً ، فهذا ضارب وذاك مضروب . . إلخ) وكأنه لو قال (قطف زيد زهرة) أو (صافح زيد عمراً) لما صحّت له لغة ، ولا سلم له تعبير ، ولا تحصلت له قاعدة.

وانظر إلى معظم موضوعات الشعر الجاهلي فماذا ترى ؟ هذه قصيدة وصفت حرب تلك القبيلة التي قتلت من قبيلة أخرى فلاناً وفلاناً ، وهذه قصيدة وصفت شجاعة رجل انتقم لثأر قديم ، وتلك قصيدة تصف مؤخرة امرأة وصفا دقيقا وكأنها تصف بارجة حربية ! !